بسم الله الرحمن الرحيم

٨٨ ـ سورة الغاشية

مكية . وآيها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى والغاشية) فى صلاة العيد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك[1] أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (رواه مسلم[2] وأبو داود وغيرهما) .

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى: ٥ ـ كتاب العمل فى غسل يوم الجمعة، حديث رقم ١٩ (طبعتنا).

(٢) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ)

[٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ خَـٰشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ)

[٤] (تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ)

[٦] (لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ)

[٧] (لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ)

[٨] (وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ نَّاعِمَةٌ)

[٩] (لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الغاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ خَـٰشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجحود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » قال القاشانىّ : أى تعمل دائبا أعمالًا صعبة تتعب فيها ، كالهوىّ فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضربت بها فى الدنيا ، وأتعابها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعـذاب .

وجوز أن يكون (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) إشارة إلى عملهم فى الدنيا . أى عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثورًا كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله فى أهل الجنة (لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) وذلك السعى هو الذى كان فى الدنيا . والله أعلم . « تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً » أى تدخل ناراً متناهية فى الحرارة . قال القاشانىّ : أى مؤذية مؤلمة بحسب ما تزاولها فى الدنيا من الأعمال « تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ » أى بلغت غايتها فى شدة الحر « لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ » وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير[٢]: الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية[٣] (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع . وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقوماً أو غسلينا « لَّا يُسْمِنُ » أى لا يخصب البدن « وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ » أى لا يسكن داعية النفس ولا نهمها من أجله « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ » أى ذات حسن ، على أنه من النعومة ، كناية عن حسن المنظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم « لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » أى لعملها الذى عملته فى الدنيا ، وجدّها فى طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكرة لا تندم ولا تتحسر .

---

(١) [٨٨ / الغاشية / ٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[١١] (لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً)

[١٢] (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

[١٣] (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[١٤] (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ)

[١٥] (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

[١٦] (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علوّ المكانة .

« لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ما خولوه من النعيم والملك « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب، وهو إناء لاأذن له « مَّوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لايعوزهم تفقدها « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن للاستناد إليها « وَزَرَابِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[١٨] (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

[١٩] (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

[٢٠] (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية ، وماهو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون، بالاستشهاد عليه بما لايستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة (كيف) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة فى حيز الجر على أنها بدل اشتمال من (الإبل) أى أينكرون ماذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتى مايصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنهوض بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة. وفى صبرها على الجوع والعطش، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى ٱلْجِبَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبة لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى ٱلْأَرْضِ » أى التى يضربون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشرىّ : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .

لطيفة :

ذكر السكاكىّ فى (المفتاح) فى بحث الجامع الخيالىّ ؛ أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب فى استيداع الصور خزانة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ، ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها . وكذا البواقى . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الوبر ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يُؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيرهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم فى منزل ـ ومَن لأصحاب مواش بذاك ـ كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أرى البدوىّ إذا أخذ يفتش عما فى خزانة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تَنِصّ إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا . وإنما الحضرىّ ، حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيبا ، للعيب فيه . انتهى .

---

(١) قائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

نجيره : نحميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كليل : تعب قاصر النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ)

[٢٢] (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)

[٢٣] (إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ)

[٢٤] (فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ)

[٢٥] (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ)

[٢٦] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بمخالفها الفطرةُ « إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نسى من أمره تعالى « لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » أى بمتسلط تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق « إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى (مَن) كما أن إفراده قبل باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة له تعالى وحده .